كأرانبه: ركضه سريع وفهمه بطيء ...

فتيان فتيان عبد اللطيف

فى صباه تحدث الناس عن سرعته المذهلة فى الجرى منذ شاهدوه يركض خلف حصانهم الشارد فيلحق به ويمسك بزمامه ويمتطيه ثم يعود هادئًا دون لهث. ثم وهم يشاهدونه يرفض أن يفك قبضته عن ذيل سيارة الرئيس محمد نجيب وهو يركض خلفها بنفس سرعتها ولم يتركها إلا بعد خروج الموكب عن حدود البلد..

لم يلتفت فتيان إلى الحديث عن سرعته لانشغاله بسرعة أخرى يصبو إلى تحقيقها.. سرعة تجميع أكبر عدد من الحصالات التى يضع بها مصروفه اليومى، فمع نمو هذه العادة التى صارت محببة إلى نفسه لم يجرب فتيان فكرة أن ينفق مصروفه فيما يجب إنفاقه فيه من ركوب البولمان ذهابًا وعودة من المدرسة.. أو شراء شطائر الفول والطعمية فى أوقات الفسح، أو أن يدخل السينما ولو مرة فى الشهر.. وتعلم أن يضع حصالاته فى دولاب خشبى مدفون فى حائط غرفته، وتعلم أن يحكم إغلاقه بقفل صغير يضع مفتاحه فى دوبارة أحاط بها عنقه.. ينام بها.. ويصحو بها ولا تفارقه.

والحاج فتيان الأب الذى كان يلمح فى ولده شطارة مبكرة فى التعامل مع الفلوس راق له أن يغذى فيه هذه الملكة فصار يمنحه مصروفه بانتظام ويدخر له ما يتأخر فى دفعه، غير أنه يشترط عليه أحيانًا أن يؤدى خدمة ما قبل أن يدفع له قروشه المتأخرة كأن يذهب بالحصانين إلى ترعة وجه البلد فيغسلهما بالليفة والصابونة ويعود بهما الحصان تلو الآخر، أو يكلفه بالذهاب إلى أناس بعينهم لتحصيل ما لديهم من أقساط متأخرة من ثمن الأقمشة ـ التى كثيرًا ما يسوقها بالآجل ـ فيذهب مسرعًا لعمل التحصيل المطلوب بكل وجوه المطالبة الممكنة..

ولم يحدث أن عاد مرة واحدة خاوى الوفاض من أحد هذه المشاوير، المرة الوحيدة التى كان من الممكن أن يحدث فيها ذلك ويعود خاويًا ألهمه الله وقال للزبون المتعسر:

ـ «حتى لا يشكوك أبى بهذه الكمبيالة سأدفعها عنك..»

وقبل أن يتمادى الزبون فى مديحه والثناء عليه قاطعه فتيان:

ـ «شرط أن تكتب لى كمبيالة أخرى تزيد عن هذه بقيمة الربع»

وحملق فيه الرجل:

ـ «أكتب لك..؟.. أكتب لك أنت يا ابن امبارح؟ هو أنت ف سنه إيه يا فتيان؟»

ـ «رابعة ابتدائى.. والموضوع دا يهمك فى إيه؟»

ـ «أبدًا ما يهمنيش ولا حاجة.. بس أنا بقول إن الحاج فتيان خلّف بصحيح. بس يعنى هو حتمًا ولا بد حكاية الربع الزيادة ده..؟»

ـ «نخليها الخمس.. ولا تزّعل نفسك»

ـ «بسم الله ما شاء الله كل حاجة عندك محلولة»

ونجح فى هذه الصفقة، ثم نجح بعدها فى الإمساك بصفقات مماثلة، وظل شعوره بالزهو والتميز يعلو ويعليه أمام نفسه كلما تعامل مع أحد هؤلاء الفلاحين الذين لا يملكون ما يسددون به ديونهم لأبيه، فهو الفتى الصغير الذى يملك مالًا جمعه بالصبر والتحمل، لكنه كان يحس دومًا بأنه كبير وهو يجلس أمام هؤلاء الكبار، فهو كبير فى المقام وهم كبار فى السن، وقد تساوى معهم فى الجلسة لأنه يملك وهم لا يملكون.. وكونه كذلك فقد ارتفع عندهم مقامه، وكان أن عرف قيمة المال عندما وضع يده على هذه الحقيقة، حقيقة أنه لن يعلى شأنه سوى بالمال.

ولأنه كان يثق فى صديقه أحمد خلف، فقد أسر له بعدد حصالاته التى ازدحم بها رف دولابه الدفين، ولأن أحمد خلف زميله فى المدرسة كان كما يقول عنه أستاذهم ولد بعقله جوهرة فقد ألهمه عقله الثمين بفكرة نصحه بها وهو أن يقوم بتربية الأرانب.. ولم يعلم فيما بعد أن هذه الأرانب التى طفح بها سطح منزلهم وطفحت بها حياته انصرافًا وبيعًا

وشراء ستجرفه إلى ما هو أكبر منها فراح يربى النعاج والخراف بالمشاركة مع الفلاحون.. وكان أن نصحه هؤلاء الفلاحون أنفسهم أن يكبر ويعلى من مشاريعه فيشاركهم على الأبقار والجواميس.. وقد رحل أحمد خلف عن الدنيا قبل امتحان الإعدادية وقد ترك بها صديقه فتيان تائهًا وسط أرانبه ودواجنه وخرافه وبهائمه وعلى بعد خطوات منه تقع كتبه وكراساته البائسة لا تجد من يفتحها ليعرف ما بها.

ولما مات أحمد خلف تذكر فتيان أنها المرة الثانية التى يودع فيها أحد رفاقه ويسير فى جنازته دون أن يذرف عليه دمعة واحدة.. هذا ما حدث معه منذ سنوات عندما أقبلت سيارة طائشة وقتلت زميلهم زكريا مسعود، كانوا كلهم يبكون.. طاهر زين الدين.. وفريد هنيدى.. ورأفت إبراهيم، أما هو فلم يعرف من أين يأتى البكاء، وظل يبحث عنه بعد ذلك بسنوات فى جنازة أحمد خلف فاستعصى عليه.. حتى عندما غرق زميلهم على رشاد فى البحر.. وسار للمرة الثالثة فى جنازة فقيدهم الثالث لم يستطع البكاء.. وراح يراقب طاهر زين الدين بدهشة.. فطاهر لم يكتف بالبكاء على كل هؤلاء الذين ماتوا فى عز الطفولة أثناء جنازاتهم فقط لكنه، كان يبكيهم كلما تذكرهم حتى أنه سمع فريد هنيدى يلومه ذات مرة وهم جلوس فى المصلى تحت شجرة ذقن الباشا وجرفهم الحديث إلى ذكرى أحمد خلف وعلى رشاد وهاجت ذكراهما عند طاهر فبكى.. يومها قال له فريد:

ـ «لا تكن رومانسيًّا إلى هذا الحد يا طاهر..»

«رومانسى!!»

وراح يتأمل هذه الكلمة دون أن يفهمها، ولكنه اكتشف أنه بالتبعية «ليس رومانسيًّا» كل ما يعرفه أنه «مادىّ» كما يطلق عليه فريد هنيدى. وبالتالى فهو يتهم فريد هنيدى بالإسراف؛ لأنه ينفق قروشه على الصحف والمجلات وحفلات السينما.. فما الذى سيعود عليه من فائدة من كلّ هذه المسليات؟.. والأدهى من ذلك أن فريد يشغل نفسه بتربية عضلاته وفتح على نفسه بابًا جديدًا للمصاريف.. أما السيد النحال، فهو الآخر يبحث عن نفسه وسط ركام متاعب المال الذى ينقصه.. فمن يصدق أن السيد النحال الذى يتحدث الناس عن قوة عقله وقوة ساعده بل وقوة شخصيته يذهب بنفسه حتى باب

فتيان عارضًا خدماته بأن يعمل عنده دلالًا حتى يخرج من مشواره معه بنصف جنيه على أكثر تقدير.. من يصدق أن السيد النحال وصل به الحال أن يسحب جاموسة أو بقرة ويمشى بها فى السوق خلف فتيان فتيان؟.. الواقع أن لا أحد يعلم أن السيد النحال لم يقدم نفسه لفتيان حتى يكسب من ورائه بعض المال بقدر ما سلّم فتيان نفسه للسيد حتى يكسب منه اعترافًا علنيًّا بالعمل عنده كخادم لأبقاره وجواميسه.

وكم استبد الفرح بفتيان عندما زاره فريد هنيدى وصعد إليه على السطوح ثم وضع يده فى جيبه وأخرج له جنيهين، ورجاه أن يعزل له عدة أرانب ويعلمه تربيتها.

وفور اتفاقهما الثنائى فوق السطوح، سرى نبأ هذا الاتفاق وهبط على الأرض، فقد بث فتيان هذا النبأ بخبث مقصود ليذكّر كل الرفاق أن ما يفعله هو الصحيح بدليل انضمام فريد هنيدى نفسه إلى مملكته.

وما لم يكن فتيان يعلمه هو أن اقتراب فريد هنيدى منه لن يعلى من قدره كما كان يظن، فإن ما شاهده فريد ـ عن قرب ـ فى فتيان سارع بنقله لباقى الرفاق بشىء من التعجب والاستغراب، فأبلغهم أن فتيان لم يجازف ذات مرة ويذبح لنفسه أرنبًا أو دجاجة.. ففتيان ليس بخيلًا على نفسه فحسب ولكنه عاصيًا لله لأنه لا يعرف الصدقة ولا يعطى لسائل أو مسكين مليمًا واحدًا فى السوق، ولا يعرف الزكاة عن أمواله.. فتيان مجرد آلة جائعة لجمع المال.. فتيان لا يأكل إلا الجبن والخيار والطماطم والجرجير وأحيانًا البيض..

وكان فريد قد اقترب من فتيان حتى يشاركه تربية الأرانب لا رغبة منه فى الإثراء وجمع المال كما يفعل صديقه، وإنما ليحل مشكلته مع اللحم.. المشكلة التى انفجرت فى منزلهم بينه وبين أمه حينما رأت من كثرة زياراته لعشة الدجاج ليذبح لنفسه منها كل يوم دجاجة أن ثروتهم الداجنة فى خطر.. ولأن أمه لم تصدق أن «فريد» بوضعه الجديد فى رياضة كمال الأجسام يعوزه كل هذا الطعام الذى أسماه ابنها «طعام الأبطال»، فقد صرخت فى وجهه إلى أن قذفته صرختها حتى سطوح فتيان.. ذلك أنه فكر أن اللحم لن يأتى إلا من هذا الطريق، وسرعان ما خاب ظنه عندما أمسك بأرنب كبير وذبحه لنفسه أمام دهشة وذهول وحسرة فتيان، فقال له:

ـ «هكذا لن تكفيك أرانبك وأرانبى.. يجب أن ننفصل».

ولم يكن لهذه الشراكة الفاشلة أثرها السيئ فى نفس فريد.. وهذا ما تعجب له فتيان بل وازداد عجبه عندما ناداه فريد ذات يوم فى فناء المدرسة واتجه بـه إلى غرفـة أسـتاذ التربيـة الرياضية وهو يقول له:

«أنا قلت للأستاذ فهمى عن شدة سرعتك فى الجرى، وطلب منى أن يراك ليشركـك فى المهرجان الرياضى..»

وفى غرفة التربية الرياضية سأله الأستاذ فهمى سكاروس:

ـ «هل سبق لك يا فتيان الاشتراك فى أى مسابقات للجرى؟»

ـ «قصدك وأنا فى الإعدادية؟.. لا والله لم تأت الفرصة»

ـ «وهل أنت مستعد أن ندربك على مسابقة المائة متر والثلاثة آلاف متر؟..»

ـ «نجرب.. ما المانع..؟..»

وبعد المقابلة قرر الأستاذ ألا يمـنح «فتيـان» ملابـس رياضـية مجانيـة إلا إذا وثـق أنـه يستحقها وهـو لن يستحقها إلا إذا نجح فى الاختبارات الأولية.. ذلـك أن فتيـان رفـض شراء هذه الملابس على حسابه.

وكان أن شارك فتيـان فى هـذا الاختبـار بملابسـة الداخليـة، وعنـدما خلـع بنطلونـه وقميصه بدا أن شكله يختلف عن كل المتسابقين المصفوفين معه على خط البدايـة، فكلهـم يرتدون الملابس الرياضية الأنيقة والأحذية الخفيفة البيضاء.. فى حـين تخلـص فتيـان مـن حذائه واصطف حافى القدمين..

هتف به ولد من أبناء البندر:

ـ «أنت يا بنى داخل مسابقة.. ولا رايح الغيط؟»

وهتف به ولد آخر:

ـ «يخرب بيت منظرك يا فلاح يا جاموسة..».

وقال الولد الثالث:

ـ «بإذن الله لباسك ده حيقع منك وإنت بتجرى..»

انطلق فتيان كالسهم ودار حول ملعب الكرة خمس دورات أنهاها بنفس السرعة التى بدأها بها.. وفى كل دورة كان يزداد عدد المتخلفين عنه من ذوى الملابس الأنيقة.. واختلف صياح الطلبة حول فتيان عن ذى قبل.. فكله صياح مصحوب بالدهشة لذلك الصاروخ البشرى الذى استهانوا بمنظره قبل أن تدير رءوسهم سرعته..

ولما اتجه فتيان إلى ملابسه وأخذها من رأفت إبراهيم وارتداها فى هدوء دون أن يبدو عليه اللهث والإرهاق كان يبحث بعينيه المتوترتين عن هؤلاء الأولاد السفلة الذين شتموه قبل المسابقة وتعجب أنهم تزاحموا مع الآخرين فى الاحتفاء به..

أما الأستاذ فهمى الذى اصطحبه إلى غرفة التربية الرياضية، فقد أهداه شورتًا وفانلة وحذاء وجوربًا وهو يسأله:

ـ «من يراك يا فتيان يظن أنك تتدرب منذ زمن طويل فى أحد الأندية..»

فهتف طاهر زين الدين مسرعًا:

ـ «أندية؟.. أى أندية يا أستاذ؟.. فتيان يسير فى اليوم الواحد عشرة كيلومترات على قدميه ذهابًا وعودة من المدرسة.. هذا هو التدريب الذى يقوم به.»

ولم يشأ أمير النحال أن يظل الأستاذ جاهلًا بشىء أهم، فقال له:

ـ «وأحيانًا يا أستاذ يقطع هذه المسافة تكرارًا فى المساء إذا أراد شراء أدوية لأرانبه»

تساءل الأستاذ بحاجبيه فقط عن مسألة الأرانب هذه، فتولى رأفت إبراهيم توضيح هذا الأمر بالشكل الكافى لأستاذهم.

* * *

وفيما بعد .. ولما ألقى فتيان ـ دون اعتناء ـ بشهادتى تقدير وكأسين من النحاس اللامع فوق مكتبه تقدم إليه فريد هنيدى برجاء قائلًا: «هذه الأشياء تشهد أنك البطل على مدارس الجمهورية فى المائة متر والثلاثة آلاف متر كيف ترميها هكذا؟.. ضع رفًّا للكئوس، وبراويز للشهادات.»

وقد برّ فتيان بوعده فصنع بروازين لشهادتيه وأقام رفًّا لكأسيه.. وكان هذا آخر عهده

برياضة الجرى ولم يأبه بكل توسلات فريد أن يستمر معه فى مزاولة رياضته، ثم لم يأبه بما قاله الأستاذ فهمى.

ـ « سلمونى فتيانًا بلا بهائم أسلمكم بطلًا أوليمبيًّا فى ظرف عامين»

ـ «أوليمبيًّا؟..» هكذا تساءل أمام فريد هنيدى الذى أفهمه:

ـ «أوليمبى يا حمار يعنى تنافس شباب العالم.. تصبح بطلاً عالميًّا.. ووكالات الأنباء تبحث عن بلدنا فى الخريطة ليقابلوك.. ويأخذوا منك الأحاديث.. ويلتقطوا لك الصور..»

كشر فتيان فى وجهه ولوح له بيديه:

ـ «يا عم.. لا أريد صورهم ولا أحاديثهم.. يخليهم فى حالهم ويخلونى فـ..»

ـ «ويخلوك فى بهايمك.. يا حيوان»

* * *

وعاود انصرافه إلى عشقه الأثير فى تربية الأرانب، وعادته المثلى أن ينجح عامًا ويرسب الآخر مشاركًا ـ بالمشاهدة والاستماع فقط ـ لكل ما يحدث فى البلد.. فقد سمع أن «فريد» اجتمع شمله بأصدقاء جدد من المدينة يتدربون فى منزله.. ويربون الأرانب على سطح هذا المنزل.. وهاله ما سمعه أن فريد يربى أرانب من نوع جديد.. نوع فى حجم الكلاب الصغيرة.. ثم سمع أن السيد النحال ينصب جلسة هو الآخر على مصطبة منزله يشارك فيها نصف من يجلسون على مصطبة فريد هنيدى.. ثم جاءته أخبار أخرى عن السيد النحال حول ظهوره الدائم عند دكان خميسه بنت الريس عفيفى بعد نجاحه فى الانتقام من جوهر البقال وأولاده.. وكان يحاول الربط بين كل هذه الأحداث بلا جدوى.. فما الذى جمع الشامى على المغربى؟.. ضيوف فريد.. وضيوف السيد.. ثم حادث جوهر البقال وعلاقة السيد بخميسة عفيفى.. ولكنه لم يجرؤ أن يتقدم بأسئلته لا إلى فريد ولا إلى السيد.. إنما لاحظ أن السيد الذى هجر الدلالة إلى الحدادة قد هجر الاثنين معًا ولم يعد يهتم بزيارته من آن لآخر عند حظيرته التى أقامها على مشارف البلد بعيدًا عن البيوت.

وعلى غير انتظار جاءه السيد بعد طول غياب عند الحظيرة. وقبل أن يجلس على أجولة العلف وبيده كتاب صغير أخرجه من سيالة جلبابه قال له:

ـ «جئت أتفق معك على مشروع رأسماله خمسمائة جنيه.. جهز نفسك»

جلس فتيان فى مواجهته وقال له:

ـ «من يسمعك تطلب منى هذا المبلغ يظن أنك على علم بأننى أملكه..»

ـ «ولو لم أكن واثقًا أنك تملك أضعافه ما طلبته منك، دعك من هذا، واسمعنى».

وبهذه المقدمة نفذ السيد النحال إلى ما يصبو إليه من استخدام فلوس فتيان فى تجارة الحشيش.. بعدما تأكد أنه ببعض المال يمكنه أن يستقل بتجارة محدودة يغذيها بما كسبه من خبرة ومعارف وزبائن وشراء لذمم المخبرين كهذا المخبر الذى جنده للإيقاع بجوهر البقال..

سأله فتيان باستهانة عن المشروع الذى يتحدث عنه.. ولم تمض أكثر من ساعة حتى دارت رأسه بهذه المعلومات العجيبة عن عالم تجارة الأثاث.. وتعجب كيف اتفق السيد النحال مع أكبر مصنع فى دمياط لسحب بضائع منه من غرف النوم وغرف السفرة والأنتريهات بألفى جنيه سيدفع منها مقدمًا خمسمائة جنيه ثم يدفع الباقى من حصيلة مكسبه فى مدة لا تزيد عن عامين على أقساط متساوية.. ثم كيف اتفق ابن النحال مع عدة معارض بالقاهرة لتسويق بضاعته.. وعرف فتيان لأول مرة أن هناك شيئًا اسمه دورة رأس المال.. وعرف أن رأس ماله فى البهائم لا يدور إلا مرة واحدة فى السنة.. أما فى تجارة الأثاث، فمن الممكن أن يدور أكثر من خمس مرات..

وفى النهاية طمأنه السيد قائلًا:

ـ «إيصال الأمانة الذى سأوقعه لك لن يكون عن الخمسمائة جنيه فقط ولكن عن هذا المبلغ ومكسبه»

ـ «وكم تضع لى مكسبًا من الآن؟..»

ـ «مائتى جنيه»

ـ «فى العام الواحد»

ـ «فى العام الواحد»

ـ «لا.. هذا قليل.. أنت تقول إن المبلغ يدور خمس مرات.. البهائم أفضل..»

فلاحقه السيد:

«البهائم بضائع حية يمكن أن تفطس وتموت.. الموبليا أفضل..»

تشاءم فتيان مما يقوله ابن النحال عن موت البهائم واستعاذ فى سره، فسأله السيد:

ـ «بماذا تتمتم؟.. أتحدث نفسك؟»

ـ «لا.. أنا أحسبها بينى وبين نفسى»

نهض النحال واقفًا، وقال له:

ـ «احسبها براحتك سأمر عليك بعد أسبوع.. أنا قررت دخول الامتحان هذا العام.. حتى أسافر إلى القاهرة ومعى شهادة أتوظف بها بجانب التجارة.»

* * *

ولما نال السيد شهادته وبدأ يستعد للسفر ذهب إلى فتيان للحصول على قرضه فاتخذ الحوار بينهما اتجاهًا آخر.. وهو عن إيصال الأمانة هل يكتبه بسبعمائة جنيه، كما يرى السيد، أم بألف كما يطلب فتيان؟..

وأنهى السيد هذا الخلاف مستسلمًا:

ـ «أمرى لله.. ألف.. ألف.. هات الإيصال لأوقع لك عليه». وهنا هتف فتيان من كل قلبه:

ـ «الفاتحة يا سيد على الخائن وابن الحرام ..»

وهتف السيد خلفه: ربنا على الخاين وابن الحرام وفلوسك أمانه فى رقبتى..

ـ «الفاتحة..»

هكذا نادى فتيان بحدة، فاستجاب السيد لندائه مسرعًا آخذًا فى قراءة الفاتحة بكفين ضارعين وعين مغمضة.. وقلب خاشع. وفى الخفاء: ابتسامة خبيثة.